

ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي

محمد التوحي

أستاذ في المعهد الديني بمكناس

الاول - أبو العباس بن الكماد ، ترجمان السلطان أبي ثابت عامر بن أبي عامر عبد الله بن يوسف المريني (2) .

الثاني - كان ترجمانا لدى السلطان أبي الحسن المريني ، ويحمل اسم مسعود (3) .

واللغة البرتغالية - هي الأخرى - كان يتقنها احد ملوك المغرب في العهد الوطاسي ، وهو محمد البرتغالي ابن محمد الشيخ الوطاسي ، ثاني ملوك هذه الدولة ، والمتوفى سنة 931 هـ - 1524 م . قال الوزان الفاسي في كتابه : «وصف افريقيا» (4) في صدد الحديث عن هذا الملك «ولقب بالبرتغالي ، لانه اسره البرتغال ايام ابيه في اصيلا ، ومكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه ابوه ورجع ، وجد يتقن البرتغالية ، فلقب بالبرتغالي» .

وإذا تخطينا عصر السعديين الى العهد العلوي ، نجد السلطان اسماعيل بن الشريف ، يتخذ اسيرا اسبانيا «برنار يوسى» لتعليم اللغة الاسبانية لاثنين من اولاده (5) .

كما انه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر م. برقت - بالمغرب - بارقة للترجمة ، تحت رعاية

من الظواهر التي برزت في عصر الدولة السعدية: عهد احمد المنصور الذهبي وإبنائه ، ظهور طبقة من المترجمين ، كانوا يشتغلون - بالمغرب على ضالة عددهم - بنقل نصوص علمية ، من بعض اللغات الاوربية الحية ، الى اللغة العربية .

وأود - قبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع - ان أتبه الى انه وقع في غير العصر السعدي - أيضا - اشتغال مغربي ببعض اللغات الاجنبية ، وبترجمتها الى العربية ، وهذا ما يتبدى به التمهيد لهذا البحث فيما يلي :

ان اهتمام المغرب بهذه الناحية يتبدى من ايام الموحدين : على عهد يوسف الاول ، فان هذا هو صاحب فكرة تعريب كتب أرسطو من اليونانية ، وباقتراحه وضع ابو الوليد محمد ابن رشد الحفيد القرطبي ، ما نقله من مؤلفات أرسطو الفلسفية (I) .

ولم يخل العصر المريني من بعض افراد يعرفون اللغة الاسبانية ، ويستخدمونها في نطاق الترجمة الرسمية لدى بعض ملوك بني مرين ، ولا يزال عدد المعروف من هؤلاء لا يتعدى اثنين :

(I) انظر المعجب «ط» مطبعة السعادة بمصر ص 159

(2) مجموعة مراسلات الملوك المسلمين ، مع ملوك أراغون وكتلونية ، ص 162 - 163 ، طبع مدريد 1940 .

(3) المصدر الاخير ص 196 - 198 .

(4) «حياة الوزان الفاسي وآثاره» ص 13 .

(5) المنزوع اللطيف ، في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف ، اثناء الياق الرابع ، وهو

لا يزال مخطوطا .

الشيخ : فقد كان يفهم اللغة الاسبانية جيدا ويكتب بها وباللغة الايطالية (3) ، ومثل السلطان الوطاسي: محمد البرتغالي الآنف الذكر (4) الذي كان يتقن البرتغالية .

وسبب خامس واخير: وهو محاولة المغرب للاستفادة من معطيات حركة الانبعاث بأوروبا ، والعمل لاسهام مغربي في بوادر النهضة الاوربية الحديثة . وهكذا انبثق عن هذه المؤثرات الخمسة ، ظهور حركة تعريبية لمعت من المغرب السعدي ، ومن المؤسف ان لا يستطيع هذا البحث ، أن يقدم سوى عدد ضئيل ، لا يتجاوز اربعة من رجال التعريب في هذا العهد، قاموا بترجمة اربعة كتب ، ومع تفاهة هذه الكمية ، لا يسع الباحث الا ان يرحب بها ، ويكبر المصادر التي حافظت عليها :

1 - ابو القاسم الفسائي :

هذا اول رجال التعريب الاربعة ، وهو ابو القاسم ابن محمد بن ابراهيم الفسائي ، الشهير بالوزير ، الاندلسي ثم الفاسي ، ولد عام 955هـ/1548م ، وبقي بقيد الحياة الى ما بعد عام 1000هـ/1592م؛ اما تاريخ وفاته فهو مجهول (5) ، عالم اديب طيب ، تفرد بمشيخة الطب بفاس ومراكش ، وتوجد ترجمته بعدة مصادر مغربية (6) ، ومنها : «روضة الآس ، العاطرة الانفاس ، في ذكر من لقيت من اعلام الحضرتين : مراكش وفاس» (7) ، وهو اسم رحلة قام بها - في المدينتين - جامعها ابو العباس احمد بن محمد المقرئ

السلطان محمد الرابع ، ثم على عهد ابنه الحسن الاول، وقد تناولت تعريب بعض النصوص الاوربية الحديثة (I) .

وهكذا يتبين من هذا العرض المقتضب ، وقوع اشتغال مغربي - خارج الاطار السعدي - ببعض اللغات الاجنبية ، وبالترجمة عنها الى العربية ولو ان ذلك قليل ، كما يتبين - ايضا - وجود معلومات - وان كانت محدودة - عن حركة الترجمة العلمية الواقعة اثناء كل من العصرين الموحدى والعلوى .

وعلى عكس ذلك ، فان حركة التعريب في العصر السعدي بقيت غير معروفة ، ومهمة هذا البحث ، هي محاولة الكشف عن هذه الظاهرة السعدية .

ولنذكر اولاً ، ان مرد هذه الظاهرة يرجع الى عدة مؤثرات اوجدت هذه الحركة التعريبية .

فهناك الجاليات المدجنة (2) التي توافدت على المغرب بكثرة في هذه الفترة .

وهناك الاسرى المغاربة وغيرهم ، ممن طالت مدة اسرهم ، حتى تعلموا لغة البلاد المأسورين بها ثم عادوا من معتقلاتهم الى المغرب .

وهناك الاحتكاك الذي تضاعف - آنذاك - بين المغاربة والمسيطرين على عدد من شواطئ الوطن : من برتغال واسبان .

وهناك التأثير ببعض الشخصيات المغربية السامية، مثل السلطان السعدي عبد الملك المعتصم بن محمد

(I) هذا الموضوع لا يزال بحاجة الى بحث على حدة وتوجد نثفة منه في «مظاهر يقظة المغرب الحديث» مجلة «تطوان» - سنة 1961 - العدد السادس .
 (2) المدجنون هم المسلمون الاندلسيون الذين لبثوا تحت حكم المسيحيين المتغلبين على بلادهم ، وقد كانوا كثيراً ما يضطرون لتفاهم الاضطهاد عليهم الى الرحيل لبلاد الاسلام .
 (3) «المغرب الاقصى» مطبعة دار الطباعة الحديثة بنصر ، ص 35 ، مجلة «تطوان» - العدد السادس - ص 146 و 150 .
 (4) ص I .

(5) مما يؤكد هذا ان محمد بن الطيب القادري اورده في «التقاط الدرر» في خاتمة المائة الحادية عشر التي ذكر فيها من لم يقف على تعيين زمن وفاته من اهل هذه المائة ، وهذا المصدر لا يزال مخطوطاً ومنه نسخ في خزائن خاصة وعامة .

(6) منها «درة الحجال» رقم 1347 .

(7) نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 220 ، وهي نسخة وحيدة مكتوبة بخط مؤلفها ، وتشتمل على بعض الباب الثاني والباب الثالث من الكتاب ، عدداً للصفحات الموجودة 326 . ويعود الفضل في اكتشافها الى الاستاذ الجليل السيد عبد الوهاب ابن منصور .

التلساني ، نزيل فاس ، والتوفى سنة 1041هـ .
1631م .

وفي هذه الرحلة يذكر المقرئ قصة اشتغال
الفساني بالتعريب ويقول :

«وله جملة تأليف رفعها الى المقام الاحمدى
المنصورى العلوى ... ومنها «مغنى اللبيب» عن كتب
أعداء اللبيب» ، وذلك انه قدم على أمير المؤمنين
- المنصور السعدى - بعض اكابر الروم ، فأتحفه
بهذا الكتاب ، مكتوباً بالقلم الاعجمى ، فعرّبه الشيخ
أبقاه الله ، وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات واسماء
بما ذكره .

ان هذه الفقرات ، تفيدنا - بدون التباس - اسم
مغربى اشتغل بالتعريب فى هذه الفترة ، وتحدد
عنوان الترجمة التى انجزها ، كما تذكر انه اضاف
للنص الاصلى زيادات ، وهذا قد نستفيد منه بعض
جوانب منهج الفساني فى التعريب .

وفوق هذا فان هذه الفقرات تحقق وجودية الترجمة
الفسانية ، لما تذكر انها من جملة التأليف التى رفعها
أبو القاسم الفساني الى المنصور السعدى .

وان المقرئ يزيد هذه الوجودية تأكيداً لما يذيل
النص السابق بهذه الكلمات :

«وفيه - يقصد «مغنى اللبيب» - يقول - حفظه
الله - مخاطباً أمير المؤمنين نصره الله : ووافق ذلك
الزمان ، قدوم البشير بفتح السودان :

هنيئاً لك المنصور دانت لك الدنيا

وذلت لك الاملاك ذلّ الترهيب

فضضت ختاماً لم يفض لسابق

بفتح الزنوج والكتاب العرب

فهذا النص الاخير يزيد واقعية الترجمة الفسانية
تأكيداً ، ويحدد تاريخها بعام 1000هـ/1592م حيث
ان هذا هو تاريخ فتح السودان على يد المنصور
السعدى .

هذا ويوجد بالخزانة الملكية ، مخطوط طبى يقع
ضمن مجموع ، يحمل رقم 2877 ، وهو عبارة عن
قطعة مبتورة الطرفين ، وتتألف من 26 ص ، وبهنا
من هذه القطعة انها لما تحدثت عن «العشبة الرومية» (1)
ختمت الحديث عنها بهذه العبارة :

«ونحن وقفنا عنها مصورة فى الكتاب الرومى
المعروف - تصحيف عن العرب - لمولانا ابى العباس
المنصور» .

فهذا الكتاب الرومى العربى ، لا يبعد ان يكون هو
«مغنى اللبيب» لانه هو الكتاب الوحيد المعروف
- لحد الآن - تعريبه برسم ابى العباس المنصور
السعدى .

واذا ترجح هذا فهو يضاعف الامل فى العثور على
الترجمة الفسانية فى يوم ما . كما يفيد ان مادة
الكتاب العربى هى الطب ، ويقرب هذا ان هذه المادة
هى الفن الذى يبرز فيه ابو القاسم الفساني حتى
قال عنه فى «روضة الآس» : انه تفرد بعلم الطب
بالحضرتين : «فاس ومراكش» .

ويقرب هذا ايضا ما سجله ابو القاسم هذا فى
افتتاحية «حديقة الازهار» من ان اهتمام المنصور
السعدى بالطب كان فوق كل اهتمام .

وبعد هذا نذكر ان المقرئ لم يوضح اللغة التى نقل
عنها الكتاب ، واكتفى بالتصريح بأن الاصل مكتوب
بالقلم الاعجمى ، وهى كلمة تتسع لاكثر من لغة
اجنبية ، على ان هذا لا يبعد ان يعنى بها احدى
اللغتين : البرتغالية او الاسبانية ، استناداً لما تقدم
فى صدر هذا البحث ، من وجود العارفين باللغتين
- معا - بالمغرب ، واذا كان لنا ان نرجح احدى
اللغتين فهى البرتغالية ، التى يبدو انها كانت
- آنذاك - اكثر استعمالاً بالمغرب .

2 - ابو محمد المسفيوى :

هو ابو محمد الحسن بن احمد بن الحسن المسفيوى
المراكشى المولود سنة 968هـ/1560م (2) وتاريخ وفاته
مجهول .

(1) هى التى صارت تعرف بعد بـ «العشبة الهندية» نسبة للهند المغربية التى كان يقصد بها - اذ ذاك -
امريكا ، وهى موضوع الرسالة المعنونة بـ «الفحة الوردية فى العشبة الهندية» تأليف عبد القادر بن
العربى ابن شقرون الكناسى ، مخطوطة فى بعض الخزائن الخاصة .
(2) له ترجمة وجيزة فى «درة الحجال» رقم 357 ، وقد خلت من تاريخ وفاته .

ان اول آثار الحجرى ظهوراً ، هي فقرات من رحلته
المعنونة بـ «رحلة الشهاب ، الى لقاء الاحباب» ، وقد
وردت هذه الفقرات - كاملة - فى «زهر البستان» ،
فى نسب احوال مولانا زيدان» (1) لمحمد العياشى (2).
وعن هذا المصدر نقلها المؤرخان : السيد عباس بن
ابراهيم فى «الاعلام» ، بمن حل بمراكش واغمت من
الاعلام» (3) . مع محمد العبدى الكانونى فى «جواهر
الكمال» ، فى تراجم الرجال» (4) ، كما ان اليفرنى فى
«نزهة الحادى» (5) اختصر من تلك الفقرات ما نقله
بالمعنى واوردته من حفظه .

الامر الثانى : قطعة من كتاب وضعه الحجرى فى الرد
على المسيحيين واليهود ، وسنتبين ان هذا الكتاب
يسمى «ناصر الدين» ، على القوم الكافرين» وتوجد
كراريس منه فى حوزة الاستاذ المستشرق جورج
كولان ، حيث وقف عليها الاستاذ الكبير محمد انقاسى
مدير جامعة محمد الخامس ، وقد لخصها تلخيصاً
وجيزاً فى موضوعه «الرحالة المغاربة وآثارهم» (6).

الثالث : ترجمة لكتاب فى فن المدفعية ، قام بها
الحجرى وسماها : «كتاب العز والمنافع» ، للجهادين
بالمدافع» ، وسنتحدث عن هذه الترجمة بعد ، بما انها
من صميم موضوعنا ، وبهنا الآن منها خاتمتها التى
توجد فى نسخة الخزنة العامة بالرباط ج. 87 ،
وقد كتبها الحجرى بقلمه ، وذيّل بها الكتاب المترجم .

وفى هذه الخاتمة نظفر بمعلومات قيمة جدا عن
حياته ، فاذا اضفناها للمعلومات القليلة التى يمدنا بها
الاثران السابقان نكون قد اطلعنا على جوانب مهمة من
حياة الحجرى ، وهى التى سنستعرض هنا مشفوعة
بالتوضيحات المطلوبة :

أديب مشارك مع رسوخ فى الطب حسبما فى
«روضة الآس» التى تثبت له «تعريبه لبعض الكتب
الطبية» .

وان هذه النفثة من المقرئ تفيد - بوضوح - اسم
مغربى ثان ، اشتغل بالتعريب - فى هذا العصر -
فى مادة الطب ، وبعد هذا لا نستفيد شيئاً آخر عن
عمل المغرب فى هذه الترجمة ، فلا نعلم اسم الكتاب
المغرب الذى لا يزال فى حكم المفقود ، كما لا نعرف
خطته فى الترجمة ، ولا اللغة التى وقع التعريب عنها.

وفى خصوص هذه الملاحظة الاخيرة ، يمكن ان
نقول : ان الكتاب عرب عن احدى اللغتين الأتفتى
الذكر ، او البرتغالية بالخصوص ، استناداً على ما
ذكر بصدد الترجمة الفسائية ، سيما والمترجم
المسفيوى تلميذ للغسانى فى فن الطب ، كما تسجل
هذا «روضة الآس» .

3 - الشهاب احمد الحجرى :

هذا ثالث رجال التعريب فى هذه الفترة ، وهو
اندلسى متمغرب ، حيث انه اقام بالمغرب ما يزيد
على 38 سنة .

ولا توجد له ترجمة فى المراجع المعروفة ، وما اكثر
امثاله من الذين ضاعت تراجمهم ، وانما يعثر بين
الفينة والفينة على بعض موضوعاته التى توضح
جوانب من حياته ، وهذه هى التى سنستعرضها - قبل
الحديث عن عمل الحجرى فى ميدان التعريب -
لنحاول ان نستخلص منها ما يلقي بعض النور على
ترجمته ، ولهذا سيتسع الحديث عن حياته ، على عكس
الواقع فى المغربيين السابقين حيث توجد لكليهما
ترجمة - ولو محدودة - فى مراجع متداونة .

(1) توجد منه نسخ متعددة ، ومنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، تقع ضمن مجموع يحمل
رقم د 2152 .

(2) له ترجمة فى «اتحاف اعلام الناس» لابن زيدان ج. 4 ص 100 - 105 .

(3) الجزء الثانى ص 69 - 72 .

(4) ج 1 ص 87 - 93 .

(5) طبع فاس ص 99 .

(6) مجلة «دعوة الحق» السنة الثانية - العدد الثالث ص 22 .

ستار اسباني الى بلاد الاسلام (5).

وكان سفره من مرسى «شنتمرين» (6) على متن سفينة تحمل القمح للبريجة «مدينة الجديدة الحالية» ومن هذه المدينة فر الى داخل المغرب الاقصى ، فدخل مدينة آزموور واتصل بقائدها الذي كتب للمنصور الذهبي في شأنه ورفيقه الذي هاجر معه فاجابه بأن يستحضرهما معه في حضوره لعيد الاضحى الذي كان قريبا ، وهكذا سار الحجري ورفيقه في صحبة قائد آزموور حتى وصلوا الى محلة سلطان المغرب التي كانت مخيمة بتانسيفت بسبب وباء كان بمدينة مراكش (7). وقد كان هذا الوفاء في سنة 1007م ، ومن هذا نعلم تاريخ اتصاله بالمنصور وسنة هجرته للمغرب (8).

اما عن حياته بالمغرب ، فيستفاد من بعض كلامه انه استوطن مدينة مراكش طيلة مقامه بالمغرب (9). وقد امتدت هذه الإقامة من اواخر سنة 1007م حتى سنة 1046م .

وهو يذكر - في اعتزاز - انه كان ترجمانا لدى السلطان زيدان بن احمد المنصور السعدي سنين عديدة ، وكان - ايضا - كاتبه باللسان العجمي «الاسباني» ثم قام بالترجمة عن السلطانين ولديه (10) اللذين لم يسمهما ، ولا شك انه يقصد ابا مروان عبد الملك بن زيدان ، واخاه الوليد بن زيدان ، وقد كانت مبايعة عبد الملك بعد وفاة زيدان ، الواقعة في المحرم عام 1037م/1627م ، ووفاته في 6 شعبان 1040م/1630م ، وفي نفس هذا التاريخ بويع الوليد المتوفى في 14 رمضان 1045م/1635م .

انه يقدم اسمه هكذا : احمد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الاندلسي (1) ، وهو يلقب بشهاب الدين وبأفوقاي (2) .

اما الجهة التي ينتسب لها من الاندلس فقد تفيد كلمة الحجري انها قرية «أحجر» الواقعة حوز غرناطة. وهي التي يعتقد البعض انها محرفة عن قرية الحجر (3).

ولا يعارض هذا ما في «رحلة الشهاب» من تصريحه بأنه - قبل هجرته للمغرب - كان يسكن بأشبيلية. لان هذه كانت من بين المدن التي صار اليها بقايا الاندلسيين باسبانيا بعد ما طردوا عن السكنى في غرناطة وناحيتها (4) .

وفي صدد حياته بالاندلس وهجرته الى المغرب ، يذكر ان اول ما تكلم به ببلاد الاندلس كان بالعربية، ولما كانت محاكم التفتيش تعاقب كل من يقرأ العربية، تعلم اللغة الاسبانية واقتصر في بادى الامر على دراسة ما يحتاج له للمخاطبة والمخاطبة ، ثم خطرت له فكرة الهجرة الى بلاد الاسلام ، ولكنه وجد أن بقايا الاندلسيين كانوا ممنوعين من الوصول للبلاد الشاطئية ، خشية ان يغفروا منها الى البلاد الاسلامية، وهنا قر عزمه على التعمق في دراسة الاسبانية ، ليؤثر بثقافته العالية على الاسبانيين حتى يحسبوه اسبانيا اصيلا ، ويمكنه الوصول للبلاد الشاطئية ، وهكذا اعتكف - سنين - على دراسة الاسبانية حتى برز فيها .

وقد نجح الحجري في تصميمه ، واستطاع ان يصل الى احدى بلاد الاندلس الشاطئية التي سافر منها تحت

(1) العز والمنافع - ورقة II2 ب .

(2) «زهر البستان» قدم الفقرات التي نقلها عنه هكذا : «في رحلة شهاب الدين الحجري الاندلسي المعروف بأفوقاي» واقتصر في «الصفوة» على تلقيه بأفوقاي .

(3) انظر «الاحاطة» ، في اخبار غرناطة» المجلد الاول ص 134 ، الطبعة الثانية .

(4) قصة هذا الطرد اشار لها في خطبة «العز والمنافع» ، ورقة ا - ب .

(5) العز والرفعة ، ورقة II6 ب II7 - ا .

(6) شنتمرية الغرب ، وهي مدينة اسلامية قديمة، من مدن كورة اكشونبة ، وتقع جنوبي غربي الاندلس، وقد استولى عليها البرتغاليون نحو سنة 652م/1253م قال في الروض المعطار ص II5 : «وشنتمرية على معطم البحر الاعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان فيه المد» .

(7) رحلة الشهاب

(8) «جواهر الكمال» في تراجم الرجال» ج I ص 93.

(9) هذا يؤخذ من اول خاتمة «العز والمنافع» ورقة II2 ب .

(10) «العز والمنافع» ورقة II2 ب .

الله تعالى عليه وعلى آله (4) ثم عرج في اياه على مصر ، ومن اتصل به هناك عالمها الشيخ علي (بن محمد بن عبد الرحمن) الاجهوري (5) الذي اشار عليه بوضع كتاب عن مناظراته مع المسيحيين واليهود بأوروبا ، فجمع تأليفا في هذا الموضوع وسماه : «ناصر الدين ، على القوم الكافرين» (6) وهو الذي توجد كرايس منه لدى المستشرق الفرنسي جورج كولان (7) ، يقسح كتاب ناصر الدين في اثني عشر بابا ، وقد فرغ من تأليفه بمصر يوم الجمعة 21 ربيع الثاني سنة 1047هـ/1637م (8).

وهذا التاريخ قد يحدد سنة رحلة الحجري عن المغرب للحج ، اذا قدرنا ان اعاد من الحرمين الشريفين الى مصر اثر فراغه من مناسك الحج والزيارة ، وهذا قد يؤيده حديثه عن رحلته للحج ، حيث انه لم يذكر انه جاور بالحرمين الشريفين ، كما لم يذكر انه اطال المقام بمصر ، وبهذا يقدر انه سافر عن المغرب للحج في سنة 1046هـ/1636م ، ويقرب هذا ان ثالث الملوك السعديين الذي قام بالترجمة عنه وهو الوليد بن زيدان انما توفي في 14 رمضان سنة 1045هـ/1635م ، ثم تبدلت الاحوال السياسية بالمغرب اثر وفاته مما يظهر ان له دخلا في اتجاه المترجم للبقاع المقدسة .

وهكذا تتوضح سنة رحلة الحجري عن المغرب ، كما نتبين مدة اقامته بالمغرب التي تزيد على 38 سنة ، تبتدىء من اواخر عام 1007هـ الى عام 1046 ، ولا شك انها مدة كافية لمغربة المترجم .

والحجري يتحدث عن سفارة قام بها الى فرنسا ، وكانت عن زيدان فيما يظهر ، وقد زار فيها باريس ، وبوردو ، والهافر ، وبعد قضاء مهمته في فرنسا ابجر الى هولندا ، ودخل امستردام ولايدن ، ثم ذهب الى لاهاية ، واتصل بأمرها ، فطلب منه هذا الامير ان يفصل له الكلام على طرد الاسبان للمسلمين من الاندلس ، فأجابه لطلبه .

وفي كل من فرنسا وهولندا ، جرت له مناقشات دينية ، مع القسيسين والرهبان ، واجبار اليهود ، وهو في الرد على هؤلاء - جميعا - يحتج عليهم بالانجيل والتوراة ، وقد درس ترجمتهما بأوروبا لهذه الغاية ، واستعملها في مناظراته التي يذكر انه وفق فيها مرارا عديدة (I).

وعند اتصال الحجري بملوك المغرب ، فقد كانت له علاقة ببعض علمائه ، حيث يذكر انه اخذ علم النجوم بمدينة مراكش عن الفقيه احمد المصوب الفاسي (2) ، كما يتحدث عن مجالسته لقاضي الجماعة بنفس المدينة عيسى بن عبد الرحمن السكتي (3) «السكتاني» .

وبعد هذا نذكر ان الحجري بعد اقامته الطويلة بالمغرب سافر عنه لاداء فريضة الحج في تاريخ سيحدد بعد ، وهو يذكر عن سفره هذا انه جاء من مدينة مراكش الى قسبة سلا ورباطها - على حد تعبيره - وركب البحر هناك فحج وزار السيد الرسول صلوات

- (1) سفارة الحجري بأوروبا وماجرياتها : ورد حديثها في «العز والمنافع» ورقة II7 أ ، وفي «التلخيص الوجيز» لكتاب ناصر الدين ، على القوم الكافرين» المشار له صدر هذه الترجمة .
- (2) التلخيص الوجيز لكتاب ناصر الدين ، اما استاذ الحجري في التنجيم فتوجد ترجمته في «صفوة من انتشر» ص 104 وفي «الاعلام» ، بمن حل بمراكش وأغمت من الاعلام» ج 2 ص 82 - 83 ، وقد سمي في المصدرين أحمد بن قاسم بن الفقيه معيوب - بالعين - الاندلسي .
- (3) «العز والرفعة» ورقة II7 أ ، وانظر ترجمة السكتاني في «نشر المثاني» ج I ص 201 .
- (4) «العز والمنافع» ورقة II2 ب ، وهنا نذكر ان الحجري ينبغي ان يلحق بلائحة «حجاج الاندلس بعد سقوطها» وهو موضوع تناوله الاستاذ الكبير عثمان الكعاك ، وكتب عنه بحثا في مجلة «الثريا» السنة الثانية : العددين II و I2 وقد تحدث فيه عن الحاج المنزوني .
- (5) راجع ترجمة الاجهوري في «صفوة ما انتشر» ص 126 .
- (6) «العز والمنافع» ورقة II7 أ ، ب .
- (7) انظر ص 4 من هذا البحث
- (8) التلخيص الوجيز لكتاب «ناصر الدين»

ستظل بدون جواب ما دمنا لم نقف على مصدر او مصادر جديدة عن حياته .

ورغما عن هذا كله ، فان المعلومات التي امدتنا بها موضوعات الحجري الثلاثة مفيدة جدا عن حياته ، ونولها لكان في عداد المجهولين .

1 - كتاب «العز والمنافع» :

والآن وقد قدمنا - حسب الامكان - حياة الحجري ننقل الحديث الى نشاطه في ميدان الترجمة ، ونذكر انه قد قام بتعريب مؤلفين اثنين : احدهما في فن المدفعية ، والثاني في علم التعديل ، ومنهما - فقط - يستفاد اشتغاله بالتعريب العلمي ، وسندرسهما - تباعا - فيما يلي :

وفاقا لما ذكر آنفا ، قام الحجري بترجمة مؤلف ابراهيم غانم في المدفعية ، من الاسبانية الى العربية ، ولما اتم هذه الترجمة سماها - باتفاق مع مؤلف الاصل الاسباني - : «كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع» (6) ، ومن حسن الحظ ان ابقى الزمان على هذه الترجمة التي توجد منها نسخ في المغرب والجزائر وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة (7) .

وفي المغرب بالخصوص يعرف منه - لحد الآن - ثلاث نسخ : الاولى بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 87 ، والثانية بنفس الخزانة وتقع آخر مجموع يحمل رقم د 1342 وهي ناقصة من آخرها . اما النسخة الثالثة فهي محفوظة بالمشيخة الملكية بالرباط، وتحمل رقم 2646 .

هذا وقد انتقل الحجري من مصر الى تونس ، واثار اعجابته بتونس واليهما الداي ابو المعاسن مراد، فتحدث عن سيرته ومنشأته الدفاعية (1) ، وفي مدينة تونس تعرف بأحد المهاجرين الاندلسيين (2) وهو ابراهيم غانم الشهير بالاسبانية بالرباش ابن احمد غانم الاندلسي ، واصله من تدلش من اقليم غرناطة ثم انتقل منها الى جهة قرب مدينة غرناطة وهناك نشأ واقام الى ان اجلى عنها - ضمن بقايا المدجنين - الى اشبيلية ، ولما اجلى الاسبان هؤلاء من شبه الجزيرة هاجر الى تونس التي وصلها اخريات ايام الداي عثمان (3) .

وقد اطلع ابراهيم غانم الحجري على كتاب وضعه في فن المدفعية باللغة الاسبانية ورغب منه ان ينقله الى اللغة العربية التي يجهلها واضع النص الاسباني(4) ، فاستجاب الحجري لهذه الرغبة الكريمة ، وقام - كما سيذكر - بتعريب الكتاب الذي فرغ منه في 10 ربيع الثاني سنة 1048 هـ (5) .

تلك هي المعلومات المتصلة بحياة الحجري ، مقتبسة من موضوعاته الثلاثة المشار لها صدر هذه الترجمة ، مع ما انضاف لها من التوضيحات والتعليق .

ولسوء الحظ فان هذه المعلومات تنقطع اثناء مقام المترجم بتونس ، وبالضبط من عاشر ربيع الثاني عام 1048 هـ ، وبعد هذا لا ندرى هل بقي هذا بتونس ام انتقل عنها ؟ وهل عاد الى المغرب الاقصى ؟ وما هو نشاطه العلمي بعد تعريب الكتاب المذكور ؟ وما هو تاريخ وفاته ؟ واين توفي ودفن ؟ كل هذه اسئلة

(1) «العز والمنافع» ورقة II3 ب - II4 أ ، ب ، والداي مراد هو المعروف بأسطا مراد ، وقد بويج بالولاية على تونس في 23 رجب 1047 هـ . وكانت وفاته ليلة الاحد 18 ربيع الاول 1050 هـ . ولدولته ذكر في «الحلل السنديسية» ، في الاخبار التونسية ، تأليف المؤرخ التونسي محمد الوزير خ . وكذا في المؤنس لابن ابي دينار ص 187 - 188 .

(2) «العز والمنافع» ورقة II2 ب .

(3) المصدر الاخير ، ورقة آ ، ب و II2 أ ، أما الداي عثمان فقد توفي يوم الاحد 13 رجب 1019 هـ . ودولته مذكورة في «الحلل السنديسية» و«المؤنس» ص 181 - 183 .

(4) «العز والمنافع» ورقة II2 ب .

(5) المصدر الاخير ورقة 108 أ .

(6) هكذا ورد اسم هذه الترجمة «اثناء الخاتمة» ورقة II5 أ ، اما العنوان الذي وضعه لها اول الكتاب فقد جاء هكذا : «كتاب العز والرفعة والمنافع ، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» .

(7) جاءت الاشارة لهذه النسخ الموجودة خارج المغرب في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج . 3

نقله للعربية ، حتى يتمكن من توزيع نسخ منه على بعض الممالك الاسلامية .

وهنا ينتقل المؤلف الى الباب الاول الذي هو كمدخل لموضوع الكتاب : فيذكر تاريخ اختراع البارود ، ويصحح انه انما وقع سنة 1366/هـ768م ، كما يذكر تنظيمات فرق المدفعيين بأوروبا وامريكا .

وبعد هذا يصل الى صميم موضوع التأليف فيتناول المواضيع التالية موزعة على بقية ابواب الكتاب 2 - 50 : شرح ما تتركب منه الآلات البارودية المعدنية

- انواع المدافع الثلاثة ، وهي : النارية ، ومدافع التهديم ، ورميها يكون بكور من حديد ، الثالثة المدافع الحجارة التي ترمى بكور من حجارة - مسائل تتعلق بالمدافع الغير الحجارة - السبب الموجب لكون المدافع النارية على الحالة التي هي عليها في طولها وعرضها ، وعمارتها - الرمي بالقياس ، وما يحتاجه المدفعي لهذه العملية من آلات هندسية ومعرفة - عمل السرائر والعجلات للمدافع - مسائل عن المدافع الحجارة - معادن انواع المدافع - اختبار الآلات الجديدة الخارجة من معمل التدويب - ذكر الهواء الذي يكون لكل كورة - عملية استخراج الكسورة الناشبة في داخل المدفع - عملية نزع المسار الذي يضعه العدو في بخش المدفع - كيفية تبريد المدافع - المسطرة العددية التي يعرف بواسطتها ما تزن كل كورة وهذا المبحث يؤكد انه من اسرار المهنة - طريقة معرفة البعد او الارتفاع - اختبار البارود لتعرف جودته او رداءته - كيفية عمل البارود - طريقة اصلاح البارود الفاسد - طريقة استخراج ملح البارود ، مع ذكر المواضع التي يوجد بها ، علاوة على الاماكن المشهورة - اختبار ملح البارود لمعرفة خلوصه وكيفية تخليصه - الكور المديرة بالنيران - التراكيب التي توضع في هذا الكور - المواضع الصالحة للمدافع - صفة عمل السلال التي يتستر بها المدفعيون من رمي الاعداء - طريقة معرفة العدو المحاصر هل ينقب تحت الارض ؟ - حيل لتكريب المدافع - كيفية السفر بالمدافع في البر - عمل القناطر على الودية - سر

وياتي في مقدمة النسخ المغربية : مخطوطة الخزانة العامة التي تحمل رقم ج 87 ، فهي - فيما يظهر - مكتوبة تحت اشراف العرب نفسه الذي يوجد خطه في هوامشها باللاحاق والتصحيح ، وهي - ايضا - تنفرد بالخاتمة المكتوبة بقلم العرب نفسه ، وبما يتبعها من الملاحق .

ولهذا ستكون هذه النسخة هي معتمدنا فيما سنحاول من دراسة لهذه الترجمة ، كما كانت سابقا - مرجعا لما اقتبسه منها هذا البحث عن حياة الحجري .

ان الكتاب يتناول فن المدفعية ، ويشتمل على افتتاحية ، وخمسين بابا ، وخاتمة ، وفي الافتتاحية يقدم مؤلف النص الاسباني معلومات عن حياته بالاندلس وتونس :

فيتحدث عن اسفاره البحرية بين اسبانيا وامريكا ، ومخالطته - اثناء هذه الاسفار - للمدفعيين الاسبان . وحضوره مداولاتهم المدفعية التي كانوا - في بعض الاوقات - يرجعون فيها الى الكتب المؤلفة في هذا الفن ، وقد كان المؤلف يحفظ بعض ما يتفقون عليه ، ويباشر بيده العمل المدفعي .

ثم يذكر خروجه من الاندلس واستقراره بتونس ، حيث توظف مع الداى عثمان (I) في البحرية التونسية ، وتراس على فرقة قوامها 200 من الاندلسيين الذين صار يسافر بهم للجهاد في البحر ، وقد اسر في ثانية سفرة ، واستمر في الاسر سبع سنوات ، عاد بعدها الى تونس ، في ايام الداى يوسف (2) ، وهو الذي امره بالجلوس في حصن حلق الوادي . فاشتغل بمباشرة العمل في المدافع بيده ، وبدراسة الكتب الموضوعية في هذا الفن ، وهكذا اكتملت ثقافته المدفعية التي باشر دراستها قراءة وتطبيقا .

وحيثما عاين المدفعيين التونسيين لا خبرة لهم بهذا الفن ، حفزته غيرة اسلامية الى وضع كتاب في فن المدفعية لتوجيه هؤلاء ، وارشاد رؤسائهم ، وقد وضعه باللغة الاسبانية التي لا يعرف سواها ، وترجى ان يتم

(1) انظر عنه ص. 6 تعليق 8.

(2) صار على راس الولاية التونسية اثر وفاة الداى عثمان ، وتوفى ليلة الجمعة 23 رجب 1047 هـ. ودولته المذكورة في «الجلل السندسية» وفي «المؤنس» ص 183 - 187 .

فرقة ودوى البارود - ما يحتاجه المدعى للسفر في
البحر والبحر بالآلات البارود - كيفية استخراج ملح
البارود من التراب وطريقة تخليصه - طريقة جديدة
لعمل البارود حسب آخر ابتكار لصنعه .

وقع الفراغ من الترجمة وخاتمتها في 10 ربيع
الثاني عام 1048هـ/1638م (3)، عدد اوراق مجموع
الترجمة والخاتمة : II7 (4) ، مسطرة 22، مقياس :
300 / 210، خط اندلسي يميل للتونسي ، وهو خط
جميل واضح ملون مصحح .

هذه أهم المواضيع الرئيسية للكتاب الذي وضعه
المؤلف برسوم تحمل طابعا اسبانيا ، وتبلغ 70 رسما
لاشكال المدافع وتوابعها .

وقد جاء في آخر الباب 48 : أن المؤلف ابتداء كتابة
النص الاسباني - في حصن حلق الوادي من مدينة
تونس - عام 1040هـ/1630م ، ثم اكمله في 22 ربيع
النبوي عام 1042هـ/1632م (I) .

اما اسلوب الترجمة فواضح سهل ، تتخلله تعابير
عامية ، ومن حسن الحظ ان هذه الترجمة تمت بتعاون
بين المؤلف والمغرب الذي كان مهما اشكل عليه شيء
في النص الاسباني ، يرجع الى المؤلف ليستوضح رايه
ثم يثبت الترجمة طبق تفسيره (2) .

والكتاب مذيّل بخاتمة من وضع المغرب ، وهي مما
انفردت به النسخة التي اعتمدها هذا البحث ، وهي
- أيضا - أهم مراجعنا عن حياة الحجري ، وقد تحدث
فيها عن جوانب من حياته بالاندلس والمغرب ، وذكر
رحلته للشرق وتونس التي تعرف فيها بمؤلف الكتاب
المترجم ، وقد قص حديث ترجمته لهذا الكتاب وخطته
فيها ، كما سجل اعجاباه بوالى تونس السدائى ابي
المحاسن مراد وأسطا مراده واسهب في ذكر سيرته
ومنشأته الدفاعية ، وسوى هذا ، فان الخاتمة تلم
ببعض مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين
آنذاك .

(I) «العز والنافع» ورقة I08 أ.

(2) المصدر ورقة II4 ب.

(3) المصدر ورقة I08 أ.

(4) تبندى الخاتمة اثناء ورقة II2 ب وتنتهى اثناء الورقة II7 ب.

(5) تركى ولد بتونس ودرس بها ، وله ترجمة في «شرح الرجزية الموضوعة في المفتين الحنفية بتونس»
النظم والشرح لمحمد يبرم الثاني التونسي ص II7 - I20 من المجموع الذي يشتمل على هذا الشرح ،
والمحفوظ بالخرانة العامة بالرباط تحت رقم 1102. وتوجد ترجمته - أيضا - في «ذيل بشارت اهل الايمان»
ص 75 - 76 .

(6) لم اقف على ترجمته .

(7) له ترجمة في «الاعلام» لخير الدين الزركلى ج 7 ص I46 ، وفي «معجم المؤلفين» لمحمد رضا كحالة

ج I0 ص 282 .

والى جانب المعلومات المدفعية فإن مقدمة وخاتمة الكتاب تقدمان معلومات نادرة عن حياة كل من المؤلف والمغرب ، مع بعض احوال الاندلس والمغرب وتونس حينئذ .

كما ان الباب الاول من الكتاب ، يتحدث عن تاريخ اختراع البارود ، ويدقق انه انما وقع اكتشاف سره سنة 768هـ/1366م ، كما يصحح انه فيما قبل هذا التاريخ لم تعرف آلات بارودية وانما كانت حيل على وجوه عديدة نارية وغيرها (3).

اما اثر هذه الترجمة فقد ظهر في تونس بالخصوص فقد سجل محمد بن عثمان الحشاشي التونسي في تقريره المشار له آنفا : انه بواسطة هذا الكتاب تعلمت ملوك تونس اعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

وبالنسبة للمغرب وغيره من الدول الاسلامية الاخرى فان موضوع تأثير الكتاب بها لا يزال بحاجة الى دراسة ، على انه من المحقق ان هذا الكتاب كان معروفا بالمغرب في عهد قريب من تاريخ ترجمته ، وكان قد وقف عليه ابو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة 1096هـ/1685م ، فان هذا نقل عن كتاب «العز والمنافع» اواخر شرحه على النظم الذي وضعه في العمليات الفاسية ، وذلك لما تعرض لمسألة عمل الرصاص في الذكاة ، فقد ذكر في هذا الموضوع ما نصه :

«... لحدث الرمي بهذه المدافع بحدوث البارود حسبما ذكر بعضهم في تأليف له في الجهاد وقاتل العدو بالمدافع ، وانه استخرجه حكيم كان يستعمل الكيمياء ، ففرقه له ، فاعاده فأعجبه ، فاستخرج منه هذا البارود سنة ... وستين وثلاثمائة والفر عجمية ، ويوافق في العربي سنة ثمان وستين وسبعمائة .

هذه الترجمة اول كتاب ظهر بالعربية في هذا الفن كما يسجل ان بواسطته تعلمت ملوك تونس اعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

هذا ولا يفوتنا ان نذكر ان هذه النسخة التي ندرسها مصدرة بفهرس موضح للابواب ، كما يوجد على اولها ملكية بخط شرقي ، تحمل اسم : «محمود باكير» .

وتجلى قيمة الكتاب في جودة الدراسات التي قام بها عن الآلات المدفعية وتوابعها ، وفي تصنيف هذه الدراسات ، برسم العالم الاسلامي الذي كان - اذذاك - في حاجة ماسة لها .

ويزيد في اهمية الكتاب ان تكون مواده مقبسة من معارف دولة كانت - آنذاك - تعد من مصاف الدول الطليعة في الميدان المدفعي ، فان المعلومات التي دونها المؤلف في كتابه ، انما استمدها من مخالطته للمدفعيين الاسبانيين ، ومن مباشرته للعمل المدفعي تحت انظارهم ، ومن دراسته لكتب مدفعية اسبانية .

وبهذا يقدم الكتاب آخر ما وصل اليه تطور الفن المدفعي في اوربا اوائل عصر النهضة . وهكذا يكون في ترجمته للعربية افادة نمينة للعالم الاسلامي ، وفي صدد هذه الافادة يقول المغرب عن الترجمة العربية : «وظهر لي انه اول كتاب الف بالعربية في هذا الفن» (I) .

ومما يدل على تطلع الملوك المسلمين - آنذاك - للاستفادة من مثل هذا الكتاب ما ذكره المغرب عن الملك المغربي زيدان السعدي من انه كان يبذل تشجيعات سخية لمسيحي اطلعه على بعض اسرار الفن المدفعي ، على حين ان هذا السر لا يعدو ان يكون مسألة واحدة بين المواضيع المدفعية الكثيرة التي درسها هذا الكتاب (2).

(I) «العز والمنافع» ورقة II4 ب.

(2) المصدر الاخير ورقة II6 ب.

(3) تاريخ اختراع بارود المدافع ، وتعيين مخترعه: مسألة شغلت بال طائفة من الباحثين ، وبالخصوص رجال الاستشراق الذين يذكر منهم على سبيل المثال: يوسف اشباخ في «تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين» : الترجمة العربية ج 2 ص 346-347 . وسيدو في «تاريخ العرب العام» : الترجمة العربية ص 489 - 490 ، الثالث غوستاف لويون ، في «حضارة العرب» : الترجمة العربية ص 576 - 580 ، وانظر «الاستقصاء» ج 2 ص 18 الطبعة الاولى .

هذه الفقرات تلخيص واضح لما ذكره كتاب «العز والمنافع» في الباب الاول عن اكتشاف البارود (1).

وبهذا يتضح ان هذا الكتاب عرف بالمغرب في زمن قريب من عهد ترجمته .

ب - ترجمة الرسالة الزركوطية :

الى جانب ترجمة كتاب «العز والمنافع» - وهو في فن المدفعية - قام الحجرى بتعريب مؤلف في علم التعديل، وهو رسالة زريج زكوط .

توجد نسخة من هذه الرسالة بالمكتبة الملكية بالرباط ، وتقع ضمن مجموع يحمل رقم 1433، ومنها يستفاد قيام الحجرى بهذه الترجمة ، كما يوجد بنفس المجموع جداول متصلة بالرسالة ، وهى نفس الزريج المنسوب لزكوط .

ان زكوط هذا او ازكوط كما يلقبه البعض (2) : هو اسراييل يسمى ابراهيم (3)، وينتسب الى مدينة اندلسية هي مدينة سلمنكة (4) التى وضع الزريج على طولها (5)، وكان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وبالضبط كان يكتب زريج رسالته سنة 877هـ/1472م (6).

اما الزريج فهو الجداول المذيلة بها الرسالة ، والموضوعة لتعديل الكواكب ، وقد بلغ عددها 248 جدولاً موزعة على 248 صفحة ، حيث ينقسم كل جدول - طولاً وعرضاً - الى مربعات ، يرسم بداخلها الاعداد المعنية بالامر .

ووظيفة هذه الجداول : ان يستخرج - بواسطتها - الحركات الطويلة والعرضية ، للكواكب المرصودة ، حتى يعرف موضع الكوكب المرصود فى دائرة فلك البروج لاي وقت فرض ، كما يعرف منها - ايضا - زمن حصول الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وما الى ذلك .

هذا هو الزيج الزكوطى ، وهو - ايضا - مدلول سائر الزيجات الفلكية .

اما رسالة الزيج فهى مدخل ارشادى يوضح خطة العمل فى الجداول ، وهى التى قام الحجرى بترجمتها الى العربية (7)، وقد جاءت هذه الترجمة - حسب النسخة الوحيدة التى نعتمدها - خالية من الخطبة التى قد تشرح باعث الترجمة ومنهجها وزمنها ومكانها، وفى آخرها ورد اسم المغرب هكذا : «احمد بن قاسم ابن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجر (تصحيف الحجرى) الاندلسى» .

وهذا يصحح نسبة هذه الترجمة للحجرى ، وقد تأكد هذا فى خطبة «تحفة المحتاج فى علم التعديل بالازياج» ، وهو مؤلف سنتحدث عنه بعد .

وكلا المصدرين يقرر ان الرسالة الزكوطية حررها مصنفها بالعبرانية ، ومنها نقلت الى اللغة اللاتينية ، ثم نقلت عنها الى الاسبانية ، وهى اللغة التى قام الحجرى بالترجمة منها الى العربية ، تشتمل هذه الترجمة على 24 باباً معنونة هكذا :

الباب الاول فى معرفة الطالع وتسوية البيوت
الائتى عشر على اقرب وجه ، الباب الثانى فى معرفة موضع الشمس من البروج ، الباب الثالث فى معرفة دخول الشمس بأوائل البروج الاثنى عشر، الباب الرابع فى معرفة موضع القمر من البروج ، الباب الخامس فى تعديل راس الثنين، الباب السابع فى معرفة حركة القمر، الباب الثامن فى معرفة الاجتماعات والاستقبالات، الباب التاسع فى الكسوفات ، الباب العاشر فى تعديل موضع زحل المحقق ، الباب الحادى عشر فى معرفة حركة زحل لكل يوم ، الباب الثانى عشر فى معرفة عرض زحل ، الباب الثالث عشر فى تعديل المركز والحصاة بعد مضى الدور الاول ، الباب الرابع

(1) ورقة 3 ب.

(2) هو المعدل عبد الكريم أغيلال فى رسالته الآتية.

(3) المصدر الاخير .

(4) الرسالة الزكوطية التى تصف سلمنكة بانها مدينة العلوم ببلاد الاندلس ، وهذه المدينة هى المعروفة عند العرب بطلمنكة ، وتقع على بعد 110 ميل من مدريد الى غربى الشمال الغربى .

(5) الرسالة الزكوطية .

(6) المصدر .

(7) لم ندر ما اذا كان الحجرى هو الذى قام بتعريب اسماء الجداول ، وما فيها من اللفاظ ، حيث ان محتويات هذه الجداول منقولة - ايضا - الى العربية.

اما اثر هذه الرسالة المعربة ، فقد كان بارزا في المغرب الاقصى بالخصوص ، فان المغاربة هم واضعو المؤلفات التي كتبت لتكميل الرسالة الزكوتية وتوضيحها ، وهذه المؤلفات تدل - بدورها - على مدى اشتغال المغاربة بهذه الرسالة وزيجها ، وقد تدل - ايضا - على ان الحجرى انما عرب تلك الرسالة اثناء وجوده بالمغرب ، بما انها اشتهرت به دون سواء من الاقطار .

هذا ، ولكي يتأكد من فعالية الرسالة الزكوتية وزيجها بالمغرب نستعرض طائفة من المؤلفات المغربية المشار لها ، وأولها : رسالة الفها عبد الله اصناك المراكشى (3) على الجداول الزكوتية ، ثانيا : تعاليق وضعها عبد الله بن عبد القادر أبو شيخ اللخمي انقصرى (4)، وهنئس بها على الرسالة الزكوتية وعلى رسالة اصناك المراكشى المذكور اولا ، وقد ورد ذكرها - معا - فى مراجع «تحفة المحتاج» تالية الذكر ولم اقف عليهما .

الثالثة : «تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والازياج» كتبها مؤلف مغربى لم يذكر اسمه ، وضمنها تكميلات وتوضيحات للرسالة الزكوتية ، ورتبها على ثمانية ابواب ، مصدره بخطبة ابانت عن قيمة الزيج ومنهاج العمل فى تحفة المحتاج ، وهذا اهم ما جاء فى الخطبة.

...وبعد : فاعلم - رعاك الله وحفظك - انى لما رأيت (تصحيف اردت) الشروع فى علم التعديل والاخذ فيه ، ووقفت على بعض الازياج التى الفها زكو (ط)، فرايتها سهلة المأخذ ، لا تحتاج الى كثرة الاعمال الحسابية ، كما يحتاجها زيغ ابن البنا ... وقد كنت اطلعت على رسالة الزيغ التى الفها مصنفها باللسان العبرانى ثم حولت الى لغة اللتين ، ومن اللتين حولت الى لسان الزمنض ، الى لغة العرب (كذا) عبد الله ... احمد بن قاسم بن حمود بن الفقيه قاسم

عشر فى معرفة حركة موضع المشتري ، الباب الخامس عشر فى معرفة حركة عرض المشتري ، الباب السادس عشر فى معرفة الحركة المحققة للمشتري ، الباب السابع عشر فى معرفة موضع المريخ بالتحقيق ، الباب الثامن عشر فى معرفة حركة المريخ فى كل يوم ، الباب التاسع عشر فى معرفة حركة العرض للمريخ ، الباب العاشر فى معرفة الموضوع المحقق للزهرة ، الباب الحادى والعشرون فى معرفة الحركة المحققة لعرض الزهرة ، الباب الثانى والعشرون فى الموضوع المحقق للكاتب ، الباب الثالث والعشرون فى معرفة حركة عطارد ، الباب الرابع والعشرون فى معرفة النودار : وهو معرفة السنة المحققة التى كان فيها ميلاده بطليموس .

هذه ابواب رسالة الزيغ الزكوطى المعربة طبق ما وردت بها ، مع تعديلات توضيحية بسيرة مقتبسة من بعض الرسائل المؤلفة حول هذا الزيغ (1) .

اما لغة الترجمة فهى واضحة سهلة فى الاكثر ، ويقع فى بعض تعابيرها تعقيد ، وتوجد هذه الترجمة مع الجداول المتصلة بها ضمن مجموع المكتبة الملكية الأنف الذكر ، عدد صفحات الرسالة 10، مسطرتها مختلفة ، خطها مغربى متوسط ملون مجدول به تصحيف يسير ، وعدد صفحات الجداول 248 حجم الجميع 205/290 .

وتبدو قيمة ترجمة هذه الرسالة ، فى تمكينها لقراء اللغة العربية من الاستفادة من الزيغ الزكوطى ، وهو قد قرب الاعمال التعديلية اكثر من زيغ ابن البنا (2) ، الذى شاع - فى المغرب بصفة خاصة - منذ تأليفه ، وصار مرجعا لدراسة تعديل الكواكب ، حتى اذا ظهر هذا الزيغ الزكوطى اخذ يزاحمه ، لما كان لا يحتاج لكثرة الاعمال الحسابية التى يحتاجها زيغ ابن البنا .

(1) يتعلق الامر برسالتين سيتناولهما هذا البحث بعد ، وهما «تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والازياج» مع «رسالة الانوار ، فى التعديل بالادوار» .

(2) هو احمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشى المتوفى عام 1321/721م ، وزيجه هو : «منهاج الطالب ، لتعديل الكواكب» مخطوط محفوظ فى عدة خزائن خاصة وعامة .

(3) لم اقف على ذكره الا عند مؤلف «تحفة المحتاج» الذى يصفه بالفقيه المعدل .

(4) ورد ذكره فى خطبة كل من «تحفة المحتاج» و«كنز الاسرار» وهما - معا - ستدرسه هذه المجالة ويزيد المصدر الثانى فى وصف ابن شيخ بانه احد شراح «روضة الازهار ، فى علم وقت الليل والنهار» للجادري .

الجمدري (تصنيف الحجري) الاندلسي ... هكذا وجدته بخط سيدي عبد الله بن عبد القادر ابي شيخ اللخمي رحمه الله تعالى ، قرأيت هذه الرسالة ، قد اخلت بكثير من الابواب المهمة ، المحتاج اليها في كثير من الجداول ... الى ان وقفت على رسالة الفها الفقيه المعدل ، سيدي عبد الله اصناك المراكشي على الجداول المذكورة ، قد اشتملت على كثير من الابواب التي خلقت منها رسالة المؤلف المذكور ، غير انها - ايضا - قد خلقت من بعض الابواب المهمة التي يتوقف على معرفتها العمل ، ويحصل بها الامنل ، فرأيت - لاجل ذلك - ان اجمع رسالة تشتمل على كلتا الرسالتين واثبت فيها جملة الابواب المهمة ، واضيف الى ذلك ما يتوصل به الى ادراك تاريخ المسيح عليه - وعلى نبينا - افضل الصلاة والسلام ، لان الاعمال كلها متوقفة عليها (كذا) ، فهو من الامور الواجبة ، لا بد منه لكل طالب ، فمن لم يعرف التاريخ المذكور ، لا يستقيم له في هذه الازياج عمل ، واثبت فيها ايضا ما وجدت من الطرر مكتوبا على الرسالتين ، بخط سيدي عبد الله ابي شيخ ، زيادة في الايضاح والبيان ، كما ستقف على ذلك كله ، ان شاء الله تعالى ، وجعلت فيه من الابواب ثمانية ...

عدد ابوابها سبعة عشر ، ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط آخر مجموع يحمل رقم ك 1468 ، من ص 278 الى ص 303 ، خط مغربي متوسط ملون ، مسطرة 25 ، مقياس 150/200 .

فهذه اربع رسائل شاهدة للانس الذي اثرته - بالمغرب - الرسالة الزكوطية العربية وزيجها .

4 - المعلم يوسف الاندلسي :

ان هذا ينسب له البعض تعريب الرسالة الزكوطية . ويعني بهذا البعض : المعدل عبد الكريم بن علي اغبال في «رسالته» التي وضعها على زيح زكوط ، فقد ذكر ان المعلم يوسف الاندلسي ترجم الرسالة الزكوطية من الاسبانية الى العربية بمدينة مراكش ، وانه اول من قام بهذه الترجمة .

فهل هذا يعاكس ما اسلفته هذه العجالة من نسبة تلك الترجمة للحجري ، نسبة مستقاة من نفس هذه الترجمة الاخيرة ، ومن بعض الذين كتبوا حولها ؟

يبدو ان لا معاكسة ولا معارضة ، وان هناك ترجمتين اثنتين للرسالة الزكوطية : الترجمة الحجرية ، مع هذه التي قام بها المعلم يوسف ، ويؤيد هذا ما ذكره اغبال : من وصف هذا المعلم بانه اول من قام بتعريب الرسالة الزكوطية ، فان هذه الاولية تؤذن بترجمة اخرى لهذه الرسالة بعد ذلك ، وهي الترجمة الحجرية ، وعلى هذا نستفيد ان تلك الرسالة عربت مرتين ، كما نستفيد اسما جديدا ورابعا لآخذ رجال التعريب بالمغرب ، وهو المعلم يوسف الاندلسي نزيل مراكش ، والذي لم يحدد المصدر الذي اورده : تاريخ قيامه بهذه الترجمة .

على اننا اذا حاولنا معرفة هذا التاريخ - ولو على جهة التقريب - ينبغي ان نتذكر ان تعريب الرسالة الزكوطية وقع بعد سنة 877هـ/1472م ، وهي تاريخ كتابة الزيح ، ونتذكر - ايضا - ان هذه الرسالة وضعت باللغة العبرانية ثم ترجمت عنها الى اللاتينية ، ثم من هذه اللغة الى الاسبانية ، وهي التي وقع النقل عنها الى العربية ، وبديهي ان هذه الترجمات الثلاث

هذا اهم ما ورد في افتتاحية «تحفة المحتاج» ، في علم التعديل والازياج .

توجد نسخة منها اول مجموع المكتبة الملكية الآنف الذكر ، والذي يحمل رقم 1433 ، خطها مغربي متوسط ملون مجدول ، به بعض نصحيف ، مقياس 205/290 ، عدد الصفحات 7 .

الرسالة الرابعة : «رسالة الانوار» ، في التعديل بالادواره تاليف ابي الربيع سليمان بن احمد الفشتالي الفاسي (I) المتوفى سنة 1208هـ/1793م .

قال في خطبتها : «...وبعد : فلما كانت صناعة الزيجات ، من اجل ما توصل به لاحوال الخنس والمستقيمات ، وكان كتاب ضوابط الادوار في الحركات لزكوط ، في ذلك وحيدا كفيلا بالغايات ، زابت ان اتحف طالبه بما يلج به على المخدرات ، متحريرا هجئة المترجم ، مع فوائد وزيادات في هذه الرسالة» .

لم تقع في ازمة متصلة ، وانما وقعت في فترات متقاطعة ، يدل لهذه قول رسالة أغبال عن الرسالة الزكوطية : «وكانت اولا مكتوبة بالقلم العبراني ، ثم كتبت بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم اسبانية» .

فهذا التعبير يثم يفيد ان التعريب وقع بعد تاريخ النص العبراني بزمن ليس باليسير .

كما ينبغي ان نتذكر - مع ذلك - ان هذه الترجمة سابقة على الترجمة الحجرية التي يقدر انها وقعت خلال النصف الاول من القرن II هـ .

وهكذا يستنتج من هذه التقديرات ان ترجمة المعلم يوسف وقعت في القرن العاشر او اوائل القرن II هـ ، اي قرب العصر السعدي او في نفس هذا العصر الذي يبتدى حدود سنة 930هـ في مدينة مراكش البلد الذي كانت فيه الترجمة .

اما نص هذه الترجمة فلم اقف عليه ، وانما اشارت له الرسالة الاغبالية ، التي ذكرت ان المعلم يوسف الاندلسي لم يقم بترجمة الرسالة الزكوطية بكاملها ، وانما عرب منها ما قدمته الرسالة الاغبالية في تسعة عشر بابا هكذا :

الباب الاول في معرفة الطالع وتسوية البيوت الاثنا عشر - الباب الثاني في معرفة موضع الشمس ومعرفة دورها وتعديلها - الباب الثالث في معرفة ميل الشمس وحقيقته ، وهل هو شمالي او جنوبي - الباب الرابع في معرفة حلول الشمس باوائل البروج ودوره وتعديله - الباب الخامس في معرفة موضع القمر ودوره وتعديله - الباب السادس في معرفة الاجتماعات والاستقبالات ودورها وتعديلها - الباب السابع في معرفة تحقيق ساعات الاجتماع والاستقبالات - الباب الثامن في معرفة عرض القمر - الباب التاسع في معرفة استخراج حصة القمر ودورها وتعديلها - الباب العاشر في معرفة حركة الجوزهر ودوره وتعديله - الباب الحادي عشر في معرفة بعد الشمس عن الجوزهر - الباب الثاني عشر في معرفة كسوف الشمس - الباب الثالث عشر في معرفة حدود خسوف القمر - الباب الرابع عشر في معرفة موضع زحل ودوره وتعديله واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة

مركزه وحصته وعرضه - الباب الخامس عشر في معرفة موضع المشتري ودوره واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه - الباب السادس عشر في معرفة موضع المريخ ودوره واستوائه في البروج واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه - الباب السابع عشر في معرفة موضع الزهرة ودورها وتعديلها واستقامتها ووقوفها ورجوعها ومعرفة مركزها وحصتها وعرضها - الباب الثامن عشر في معرفة موضع عطارد ودوره وتعديله واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه - الباب التاسع عشر في معرفة المطالع الاستوائية .

وإذا حاولنا ان نتعرف الاثر الذي اثرته هذه الترجمة ، فلا نعدم اصداء لها - بدورها - في بعض الموضوعات المغربية .

واول ذلك رسالة المعدل اغبال (I) المتكررة الذكر ، وقد عنيت بدراسة الابواب 19 الآفة الذكر ، بعد ما مهدت لهذه الدراسة باقتراحية عن اصداء الرسالة الزكوطية ، وعن مصادر ومنهج المؤلف ، وهي التي تقتطف منها ما يلي :

وقال كاتبه ومؤلفه : عبد الكريم بن علي اغبال ، رحمه الله ... وبعد : فهذه رسالة فائقة لطيفة ، في كيفية التعديل بالزيج الذي وضعه ابراهيم اليهودي المعروف بأزكوط ...

وهذه الرسالة قد جمعتها من رسائل عديدة ، وكلها في غاية ما يكون من الاختصار ، حتى ان من تمسك ببعض منها لم يحصل على طائل ، وهي كلها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج ، وكانت - اولا - مكتوبة بالقلم العبراني ، ثم كتبت بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم سبانيا ، ووجدت بيد نصراني اسمه زمنض ، واخذها من عنده المعلم يوسف الاندلسي ، وهو اول من ترجمها بالعربية في مدينة مراكش ، فاخذ الناس منها ما قدروا على اخذ ، لصعوبة لفظها ، واختصروها غاية الاختصار ، حتى اجحفوا بالكثير من عملها ، وما نحن الآن - بعون الله وقوته - جمعنا ما في تلك الرسائل ، ولقنا بعضها لبعض ، بعد مشورة من اخذنا عنه هذا العلم ، وموافقته على ذلك ، وقد بذلنا الجهود في بيان معانيها ، وترتيب ابوابها : الاول فالاول .

تقع هذه الرسالة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 2014 من ص I الى ص 55 ، مسطرة I8 ، مقياس I50/I90 خط مغربي مستحسن ملون مجدول .

الرسالة الثانية : «كنز الاسرار ، وفيض الانوار، في تعديل النيرين والخمسة المتحيرة بالادوار» تأليف محمد بن المعطي بن احمد الطيب بن محمد مريز الرباطي الاندلسي (I)، المتوفى سنة 1223هـ/1808م .

وهي - بدون شك - موضوعة على هذا الترجمة المتحدث عنها ، وسنرى - في خطبة هذه الرسالة - انها تحاذي - كثيراً - افتتاحية الرسالة الاغبالية الآفة الذكر ، والموضوعة بخصوص تلك الترجمة .

انها استجابة لرغبة الفقيه المشارك السيد التهامي ابن العلامة الشهير سيدي علي بن احمد الوزاني اليملاحي الحسني (2) الذي طلب منه ان يضع رسالة عن الزيج الزكوطي ، تكون جامعة لمعانيه ، ضابطة لقواعده ومبانيه .

تستعمل هذه الرسالة على I8 بابا ، مصدرة بافتتاحية عن منهج المؤلف وقيمة هذه الترجمة ، وما جاء فيها:

«... ولفقت هذه الرسالة ، بعد ان طالعت على هذا الزيج رسائل عديدة ، غير انها في غاية ما يكون من الاحتصار ، حتى ان من تمسك ببعض منها او كلها، ربما لم يحصل على طائل ، لانها مأخوذة من رسالة الزيج ... فاخذ الناس ما قدروا عليه منها لصعوبة لفظها ، فوضعوا على هذا الزيج تلك الرسائل مختصرة جدا ، حتى جحفوا بالكثير من عملها ، فمنها رسالة الامام الجياني الاندلسي ، وهي اجلها ، ورسالة الامام البركة سيدي عبد الرحمان الفاسي ، ورسالة سيدي عبد الله بن سيدي عبد القادر ابي شيخ اللخمي القصري ، شارح «روضة الازهار» في علم وقت الليل والنهاره ، ورسالة الفقيه المعدل سيدي عبد الكريم المعروف باغبال ، رحم الله الجميع بمنه آمين، وليس ذلك جهلا منهم - رضي الله عنهم - وانما ذلك من عدم تبين المترجم عن رسالة المؤلف ، لان نقل

التأليف من لغة اتي لغة صععب جدا ، لا سيما اذا لم يكن المغرب عارفا بالالسن ، وقد زعم كثير من الناس ان هذا الزيج سهل عمله ، وقريب فهمه ، وليس كما زعم ، ثم اني لم اثبت - في هذه الرسالة - عملا الا بعد ان امتحنته ، وثبتت لدى صحته» .

قال في آخر الرسالة : «وافق الفراغ من جمعها بزواوية وزان - كلاها الله بمنه - وذلك بعد غروب الشمس بنصف ساعة معتدلة ، من ليلة الاحد الثاني من ذي الحجة الحرام بحساب العلامة ، الاول منه بحساب الرؤية ، من عام احد عشر ومائتين والف ، من سنن الهجرة النبوية ، على صاحبها افضل الصلاة وازكى السلام ، الموافق للسابع عشرة مايه من سنة سبعة وتسعين وسبعمائة والف ، من تاريخ السيد المسيح عليه السلام .

تقع ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم د 2027 من ص 83 الى ص I18 ، مسطرة 23 ، مقياس I75/220 ، خط مغربي متوسط به تصحيف . وهكذا نتبين - مرة ثانية - الآثار التي كانت لهذه الترجمة الاخرى للرسالة الزكوطية .

هذا وستكون خاتمة حديث «الزيج الزكوطي» ، وخاتمة هذا البحث ايضا: ما جاء في بعض «مقدمات» (3) العلامة الكبير ابي اسحاق ابراهيم بن محمد التادلي الرباطي (4) ، المتوفى سنة 1311هـ/1894م . فقد ذكر انه درس احد ابواب «الزيج الزكوطي» على بعض علماء الرباط ، وهو «محمد الرطل» الطيب المعدل الموسيقي، الذي اخذ عنه تعديل القمر بطريقة هذا الزيج .

وهو لم يبين الترجمة العربية التي اعتمدها في هذه الدراسة ، ولم يوضح هل هي الترجمة الحجرية او ترجمة المعلم يوسف الاندلسي ، وايا ما كان ، فان هذا يدل على ان الترجمة العربية للزيج الزكوطي ورسالته ، امتدت دراستها بالمغرب ، حتى النصف الاخير من القرن الثالث عشر الهجري ، والله سبحانه ولى التوفيق .

الرباط - محمد المنوني

(I) له ترجمة في «الاغتيال» ، بتراجم اعلام الرباط»

(2) له ترجمة في «الكوكب الاسعد» المطبوع - على الحروف - بفاس بهامش «تحفة الاخوان» ص 185-186

(3) توجد ضمن كناش بكتابة العلامة الجليل محمد بن بوبكر التطوانى بسلا، حيث وقفت عليه اثناء سنة 1374هـ/1955م .

(4) من مصادر ترجمته «الاغتيال» ، بتراجم اعلام الرباط» .